الأدب الشعبي

بقلم : محمود تيمور

١

جرى الاصطلاح باطلاق صفة « الشعبي » على الوضيع والرخيص أو ما دون المستوى الرفيع. نقول : فكرة شعبية، أي انها مشوبة بمطاوعة الاهواء والنزوات ، لا سلامة فيها ولا سداد . ونقول : نكتة شعبية ، نريد انها لا تخلو من تبذل واسفاف . ونقول : طعام شعبي ، نعني انه ساذج في مظهره ، غير متقن ولا مستساغ . ونقول : ثوب شعبي ، للدلالة على انه من نسيج غير فاخر ، ولذلك يرخص ثمنه ، ولا يعز على المقلين شراؤه . ونقول: مسرح شعبي، فيفهم عنا السامع انه مسرح الجمهور العامة، لا يتذوقون فيه شيئاً من الأدب السري والفن الرفيع.

فكل ما هو منسوب الى الشعب محمول عليه مجانبة السمو والاصالة والجودة ، مفروض فيه الابتذال والتفاهة والهوان.

فهل صحيح ذلك في ميدان الأدب على وجه خاص ؟ هل « الشعبية » في الادب ان يتصف بالابتذال والضعة، وان تجانبه خصائص الادب الرفيع في التفكير والتصوير والتعبير ؟

اما الامر الواقع فبين ظهرانينا نتاج ادبي يشيع الآن في بعض طبقات الشعب بقدر كثير او قليل ، ومعظم هذا النتاج ضئيل الحظ من رفعة الفن وسموه ، سقيم الاداء ، لا يخلو من تبذل واسفاف ، ولكن تسميته بالأدب الشعبي ظلم عظيم ، فان صفة هذا الادب تلحق بأصحابه لا بالشعب ، ثم الذين تقف بهم ملكاتهم وقرائحهم ومواهبهم في مستوى محدود ، فتتقاصر عن افق الفن الرفيع ،فأن دل أدبهم على شيء فانما يدل على مستوياتهم ومزاجهم لا على مستوى الشعب ومزاجه .

حقاً ان هذا اللون من النتاج الادبي يلاقي من افئدة السواد هوى ، ويصادف من الجمهور مزيد اقبال . ولكن هذه الظاهرة ليست فيها حجة على الشعب ، فالنفوس بطبيعتها يستهويها ما يرضي بعض الغرائز القريبة الاستجابة ، وما يلائم النزوات التي تتعاور الانسان في اطوار حياته . فأذا قدم لها شيء من ذلك في مختلف شئون الحياة اقبلت عليه،وانساقت معه ، إلا ان يعصمها من ذلك حسن التنشئة والترويض . ولا ريب ان الرياضة الادبية والعمل على السمو بالأذواق والتوجيه التهذيبي العام ، خليق ان يجعل من الشعب عنصراً صالحاً يستعصم على الابتذال في الادب ، فيعاب ما يقدم اليه مما ينطوي على شذوذ وانحراف او تهافت واسفاف .

والقول الذي يجب ان يكون مردوداً على صاحبه ، هو القول بأن الشعب لا يستطيع استساغة لون من الادب ، إلا هذا اللون التافه الوضيع ،فالطعام الجيد الصنع الكريم العنصر : من يأنفه ؟ ومن لا يألفه ؟

لقد آن لنا ان نصحح الوضع في معنى الأدب الشعبي، فما ذلك الأدب الشعبي في الحق الا الأدب الفني الرفيع الذي يستلهمه الفنان من روح الشعب ومن مختلف بيئاته ، فيعبر به عن مشاعر هذه الامواج المتدافعة من الناس في ملتطم الحياة ، وان هذا الادب الشعبي ليمثل الجانب الاكبر من الأدب الحي الخالد في كل امة من الامم ، وفي كل عصر من عصور البشر .

تلك هي روائع الأدب العالمي الباقية على الزمن، ليست أصولها إلا أساطير الشعب وأقاصيصه ، فالألياذة والانيادة والمهابهاراتا والشاهنامة وألف ليلة وليلة ، إنما هي كتب شعبية تعبر عن نفسية الشعب في مجموعه ، وتسجل أصداء صوته ، وتصور ما ظهر وما بطن من نزعاته ونزواته . وما خلدت هذه الأعمال إلا بأن بينها وبين الناس وشائج موصولة هي الوشائج الانسانية الخالدة .

وما نجح « شكسبير »و « جوته » و « دانتي » و «موليير» و « تاجور » و « تشيخوف » وأضرابهم من أفذاذ الأدب في الأمم إلا بأنهم يخاطبون الشعب كله ، يجلون ما يعتلج في قلبه ، في أداء صادق واستلهام امين ، فهم فنانون عظماء بانهم استطاعوا ان يتملكوا ناصية الجمهور الزاخر ، وان يتدسسوا الى اعماق نفسه ، فيكون بينهم وبينه تجاوب عميق .

واليك « القرآن » العظيم مثلاً رفيعاً للعمل الفني ، ففيه تصوير رائع لهذه البشرية في متباين عواطفها ومختلف منازعها ، فيه تجد كل نفس مناها . وقد هبطت آياته على الشعب بلغة الشعب ، وعمت رسالته الناس كافة ، فكان له وقع السحر ، وظل على الدهر رمزاً خالداً للأدب الحي ، لا يفتأ يثير في نفوس الناس على تباين مراتبهم ألوان المشاعر والأحاسيس .

٢

ما تعريف الأدب ؟

ان هو الا تعبير فني بالكتابة والقول، مثله كمثل التصوير والغناء والموسيقى والرقص ، فالتصوير تعبيـــير فني بالرسم والتلوين ، والغناء تعبير فني بالتنغيم والتطريب ، والموسيقى تعبير فني بالجرس والرنـــين ، والرقص تعبير فني بالحركة والايقاع .

تلك هي الفنون التي يعد في جملتها الأدب ، فالأدب فن والاديب فنان ، والفن للروح لا للعقـــل ، وللنفس لا للذهن . ومن ثم كان الادب لوناً من الالوان التي تخاطب العاطفة والشعور والوجدان ، والناس اجمعون قادرون على ان يفهموا هذا الخطاب ، فهم سواء فيما انطوت عليه جنوبهم من وجدان وشعور وعاطفة ، وانما يتمايزون في العقول والاذهان ، ويتفاضلون بالمنطق واستظهار الحقائق. وليس شيء من ذلك يتعلق به الادب او يتخذه له هدفاً.

القارىء الذي لا تسمو عقليته، ولا تكتمل ثقافته ، يتعاصى عليه ان يأخذ في شيء من العـــلم الذي يقوم على استقراء واستنتاج ، مما يخاطب العقل ، ويتطلب جودة الذهن، وسعة النظر ، ولكنه لا يتعذر عليه ان يتأثر بالأدب الفني الرفيـــع ، ما دام فن الأدب تعبيراً عن الحياة في صورة تتصل بالنفس وتساير العاطفة وتخاطب الوجدان .

ليس الاديب بمكتشف حقيقة من الحقائق ، او مبتدع حكمة من الحكم او مزاول تجربة من التجارب ، فالحقائق والتجارب والحكم متعالمة متعارفة ، لا يزيدها الأديب شيئاً، ولا يضيف اليها جديداً ، وانما هو يستخلص شذوذها من بين الاخلاط والشوائب ، ويلم شملها من فرقة وشتات ، ويحسن انتزاعها والتقاطها من مضطرب الحياة في صور فنية جميلة ، كما يلتقط الجهاز الكهربي ذبذبات صوتية معينة في افق عريض يعج بأمواج متلاطمة من الاصوات .

لا ضرورة ثمة الى ان يكون الشعب مثقفاً لكي يفقه الادب الفني ويستسيغه ويتأثر به ، فحسب الشعب ان يكون سوي العاطفة ، قوي البصيرة ، ذكي القلب نقي الذوق، واذن يسعه ان يتقبـــل الادب الفني بقبول حسن ، ويحله منه المحل الكريم .

رب فلاح أمي في بطن الريــــف يعقب على الاحداث بجملة فاذا هي مثل سائر ، ويخوض في الحديث بكلمة فاذا هي من جوامع الكلم، ويهزه الطرب او يروعه الفزع فيرسل الانشودة فاذا هي فن ، ويغنيها فاذا هي لحن ... ولا شيء من ذلك يبعث على عجب . فما الاغنية او الانشودة او الحكمة او المثل الا تعبير عن الحيـــاة من فيض العاطفة ووهج الروح . وهذه الروح والعاطفة كلتاهما هبة الله للبشر ، لا يفتقران الى معاناة العلم ، ومكابدة الدرس، ولا يتوقفان على اكتساب الاقيسة المنطقية التي تحقق بها ظواهر العيش وطبائع الاشياء ، وتتألف منها صنوف المعارف والعلوم .

الأدب لا يقول لك : اعلم هذا واعرفه ، ولكن يقول لك : تأثر بهذا واستشعره . وعبثاً تطالب من الاديب إن ابتغيت عنده ان يزيدك علماً ومعرفة وانما انت راغب اليه في ان يشيع في اقطار نفسك الروعة والاهتياج، ويملك عليك عاطفتك بالاستهواء ، فيهرب بـــك من حاضرك وينسيك ما انت فيه ، ويمضي بك محلقاً في آفاق من الاخيلة والتصورات ، فانت عنده طالب تعزية او مقتبس فرحة وابتهاج ، او ملتمس لوعة وبكاء ، وفي الوان الادب ما ينيلك هذه المطالب جميعاً .

غاية الادب اذن ان يروع، ونعني بالروعة إثارة المشاعر ونفض الاحساسات. ولا يكون هـــذا إلا إن كان العمل الادبي فنياً اي جميلاً اي رائعاً ...

والأدب الفني انما يجمل وتكتمل فيه الروعة حين يتوافر له عنصر اللذة والامتاع، او التسلية والترفيه ، فبهذا العنصر تحمل القارىء على ان يقرأ، وتحبب اليه ان يتابع . فالاستجابة بين الكاتب والقارىء شرط التواصل بينهما ولن يستجيب القارىء لكاتب اذا فقد عنده ما يسعده ويمتعه ويؤنسه ، والمقصود بالايناس والامتاع ان يبعث الكاتب عند القارىء نشطة الفكر وان يلمس مشاعره ، وان يثير فيه الاعجاب بالجمال .

وانك لا تبلغ مبلـــغ الاستجابة من نفس القارىء اذا جلوت له الواقع الذي يحيط به احداثـــاً كما هي في مجتمع الناس ، فالواقعية البحت لا تخرج بالقارىء عن مشهوده المبذول ومسموعه المملول ، وكذلك لا تبلغ من نفسه ذلك المبلغ المنشود اذا نأيت به عن مألوفه في دنياه ، وباعدت بينه وبـــين آفاق افكاره واخيلته ، وانما انت مصيب غرضك متى بعثت في الواقع الميت حياة ، وصبغت الاحداث الجامدة صبغة الخيال ، فبذلك يسمو العمل الادبي الى المستوى الفني ، فاذا هو فتنة تثير ، وجمال يروع .

٣

ربما عنّ لسائل ان يقول :

أنى للجماهير ان تستجيب للأدب الفـــني الرفيـــع ، وهي محدودة الوعي والادراك ، متخالفة الأذواق ؟

والجواب غير بعيد ، فالصورة الأدبية الفنية يأنس فيها كل ذوق ما يلائمه، ويجد فيها كل امرىء ناحية يتأثر بهـــا ويستجيب لها ، حسبما تعينه ملكاته ومداركه .

الفنان العبقري يرفع مصباحه الدري ، مرسلاً منـــه نوراً ابيض وهاجاً صافي الاشراق، وان هذا النور الابيض لينطوي على مختلف الالوان حيـــنما يتحلل بالمنشور . والنفس البشرية منشور بلوري يتحلل به ذلـــك النور الوهاج ، فكل امرىء يشهد ما يرتاح اليه ، او مـــا تستطيع عينـــه ان تراه. وفي أدب الفنان العظيم نور كامل تكمن فيه الأطياف جمعاء .

وانما يتفاوت الفنانون درجات بما يعوز ادبهم من ألوان هذه الأطياف فمنهم من يعوزه الكثير ، ومنهم من يعوزه القليل ، ولذلك نرى تأثير الفنان مقصوراً على طائفة مخصوصة من الناس اذا كان ادبه مقصوراً على بعض الأطياف التي تلائم تلك الطائفة وحدها ، فأما الفنان الذي نفحته « عبقر » فأن أدبه تتكامل فيه اطياف النور على اختلاف الألوان ، فيه لكل طائفـــة أرب ، وعنده لكل ذوق متاع .

وليس بكاف ان تبعث النور وهاجاً متكاملاً لكي تطمئن الى امكان الاستنارة به ، فلا بد من رعاية الطريقة التي يتجلى بها النور للعيون ، لا بد من رعـــاية الزجاجة التي تنظم انبعاث الشعاع ،اعني بها اللغة والأسلوب وهنا تنجم عندنا مشكلة العامية والفصحى ، فالعامية لغـــة التخاطب في الجمهور ، والفصحى لغة

التدوين للأدب الفني ، ولا تتحقق الاستجابة بين كاتب وقارىء الا ان فهم القارىء ما دون الكاتب ، والواسطة بينهما لغــة واسلوب، وذلك هو الحجاب بين الأدب الفني والجمهور العام ؛ وعلاج هذه المشكلة في ناحيتين : الأولى تطويع اللغة حتى تكون صالحة لمخاطبة الشعب كله ، والأخرى تعميم التعليم حتى تلتقي الأداتان : اداة الاسماع واداة الاستماع ، او كما يقول المهندسون : اداة الارسال واداة الالتقاط .

٤

حين يصدق الأديب الفنان في استلهامه يخرج عملاً فنياً . وهو في هذا العمل الفني يجلو صورة الشعب ، ولا غرو ان الشعب يستهويه ان يرى نفسه في المرآة ، كما يلذ لكل امرىء ان يشهد شخصه في رسم او صورة . وانت اذا صنعت تمثالاً فنياً جميلاً لفلاح في حقل او عمدة في قرية ، وجدت من يروقه التمثال ومن يعجب به بين الفلاحين والعمد . وفي المتحف الزراعي المصري قاعة ملئت بالتماثيل الملونة التي تصف مشاهد الفلاحة ومجالس الريف ، وان الزوار والمتفرجين من المصريين ليقفون عندها طويلاً معجبين بما يرون من ابطالها ، ولعلهم هم انفسهم الماثلون.

فالأديب الفني في مستطاعه ان يقدم عملاً فنياً معبراً عن روح الشعب ، مستجيباً لما يجري في وليجة نفسه . ولزام على الأديب اذا هدف الى شيء من ذلك ان يكون من الشعب على مقربة . بل لا بد ان يحيا بين جوانحه ، ويتدسس في صميمه . ويستجيب لذلك كله في صدق واخلاص وايمان. فهو من الشعب يأخذ ، واياه يناجي ، وما الشعب إلا نموذج من النفس البشرية بما حوت من نوازع وخصائص واطوار .

حقاً ان العمل الأدبي الفني لا بد ان تتجلى فيه فكرة او رأي او هدف ، ولكن هذه الفكرة في العمل الفني يجب ان تكون وثيقة الصلة بالنفس الانسانية على وجه عام ، فهي تفهم بالبصيرة لا بالعقل ، وما دامت الفكرة نابعة من قرارة النفس منتزعة من صميم الحياة ، ملتقطة من جو البيئة ، فهي فكرة قديمة قدم الغرائز والعواطف والنزعات ، وليس للأديب الفنان فيها الا فخر اثارتها ، وفضل بعثها في ثوب جديد والتذكير بها على نحو طريف ، ونحن حين نعجب بفكرة ادبية جميلة فاننا لا نعجب بها الا لأن الكاتب يزفها الينا في اطار فني ، ويصورها لنا في معرض جذاب .

إذا مس الاديب من النفوس وتراً أرنت النفــوس له واستجابت ، وإذا أصابت المعاني شغاف القلوب خفقت القلوب لها واهتزت . وهذا « الراديو » ينقل لنا صورة صوتية لمجلس غنائي انشدت فيه « ام كلثوم » قصيدة « لشوقي » واهل المجلس من شتى الطبقات ، فهم نموذج شعبي صادق التمثيـــل للشعب وانهم ليستمعون الى الغناء فيبدون إعجابهم بقدر ، وما تكاد الشادية تبلغ في إنشادها قول الشاعر :

وما نيل المطالب بالتمني ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

حتى نسمع « الراديو » قد ارعد بتصفيق هذا الحشد الزاخر إرعاداً يصم الآذان ويشق العنان . وما كان ذلك إلا لان هذا المعنى بخصوصه قد اصاب من الشعب شغاف قلبه ، ومس وتراً حساساً في نفسه ، فهذا الشعب قـــد عانى في دهره الاطول استلاب حريته ، واغتصاب حقوقه ، فهو مظلوم مهضوم ، تمنى العدل والانصاف حتى سئم التمني ، وطالب به حتى مل المطالبة، وانه لواجد في هذا البيت الشوقي الحكيم مناجاة له في محنته ، وتأييداً له في عزمته ، وحضاً له على ان يبلغ ما يريـــد بقوة المصاولة والغلاب لا بمنطق المناقشة والحجاج .

لا يقولن الكاتب ان الجمهور لا يفهم عني ، وانـــه ادنى مداركاً مني ، فالكاتب ان استوعب في ادبه احساس جمهوره ، وعبر عما يعتمل في بيئاته ، فالجمهور فاهم عنه ، مدرك منه ، وعلة الجفوة بين الكاتب والجمهور ان يكون الكاتب قـــد اقتنص شعوراً ليس بالشعور القوي في طوايا النفوس ، او ليس بالشعور العام الذي ينتظم جماعات الناس ، واذن لا يحس الجمهور ما احس الكاتب ، ومن ثم لا تكون بينهـــما استجابة ، فلا تنبت بينهما الفة .

ما أكثر ألوان الموضوعات التي تعرض للكاتب الاديب ، يجري بها قلمـــه ويبعث اليها أضواء فنه ، وإن من هـــذه الموضوعات ما هو خاص او أخص ، تتمثل فيه نزعات كثرة من الناس او قلة ، فهو عند هؤلاء الكثيرين او القليلين أثير وهم اليه في الاختيار يجنحون . ولكن ثمة موضوعات شاملة ، فيها تلتقي اشتات المطامع والميول، ولها من مختلف مشكلات الحيـــاة وطرائق العيش نصيب ، فهي متصلة اوثق الاتصال بتلك التيارات العميقة العامة التي تجري في اوصال البشرية كلها، لا تقتصر على جيـــل من الناس ولا تختص بعصر من عصور التاريخ . فهذه الموضوعات الشاملة إذا زاولها الاديب الفنان امتد أثرها في كل جانب. وانبسط ظلها على كل ناحية واستوى

في استشعارها بدوي وحضري ، وربما استجاب لها السويدي قريباً من القطب حين يستجيب لها الزنجي في خط الاستواء ، فهي الى العالمية اقرب ، والى الخلود ادنى .

كلما عالج الاديب ناحية ينفسح نطاقها في مجتمع الناس ، كان صوته أندى ، واثره اشمل واعمق . وذلك هو ادب الحب يستأثر بالحظوة العزيزة في القصة وفي الشعر وفي غير ذلك من ألوان الادب ، وهل كانت للحب تلك الحظوة إلا بانه عاطفة انسانية تلائم كل نفس،وتطاوع كل هوى ، وانه بضعة اصيلة في الطبع البشري ينجم عنه كثير من العواطف والتأثرات ، فهو دعوة مستجابة ونداء مسموع ، وهو عند الجمهور العام مكفول له القبول .

والتعويل كل التعويل على منهج المعالجة لامثال هذا الموضوع الانساني العام ، فقد يتناول موضوع الحب اديبان احدهما غير فنان والآخر فنان اصيل ، فأما غير الفنان فانه يطرق الموضوع في تصنع فيقلب الحقائق ويزور الواقعات ويجتلب زائف المؤثرات ، ويفوته النهدي الى بطائن القلب البشري حين تعتمل فيه عاطفة الحب ، فاذا هو يخرج لنا صورة شوهاء لأنها صورة مكذوب بها على الحياة وعلى الأحياء ، فأما الأديب الفنان فانه يطرق الموضوع عينه ، ولكن على بصيرة وهدى ، وفي امانة واخلاص ، فيخرج عمله صادق الوحي خالد الأثر .

٦

واني لعلى يقين بأن العمل الفني اذا توافر له جوهر الأدب من اثارة العاطفة ، ومنادمة الوجدان ، من تناول العناصر الحية في المجتمع البشري ، ومن تصوير النزعات النفسية النابعة من موارد انسانية اصيلة ، فان هذا العمل الفني صالح لان يكون شعبياً يستمرئه الناس على اختلاف مراتبهم من المعارف والمدارك ، وانهم ليستجيبون له، ويتأثرون به ، ويجدون له في انفسهم بلاغاً ليس وراءه بلاغ .

اعرف فيمن اعرف سيدة تقرأ العربية ، ولكنها غير متضلعة منها ، فأما الشعر العربي فانها لا عهد لها به ، ولعلها تتجنبه ثقة منها بأنها لا تملك له فهماً ، واظهر ما تتميز به هذه السيدة ان عاطفة الامومة تنوهج بين جنبيها ايما توهج ، فهي بهذه العاطفة تحيا ولها تعمل، ويوماً عرضت عليّ احدى المجلات مشيرة فيها الى ابيات من الشعر يناجي بها الشاعر طفله، وما عتمت ان اخذت تقرأ عليّ هذه الابيات ، جياشة الحماس مستعذبة ما تقرأ ، مسهبة في شرح ما تجد من جليل المعاني ، تدلني بذلك على انها فهمت مرامي الشاعر واغراضه ، وان غمت عليها مدلولات الألفاظ على الوجه الدقيق . فهذه السيدة قد تأثرت عاطفتها بتلك الأبيات، طوعاً لما تضم بين جوانحها من مشاعر الامومة المتوقدة، فالشاعر قد عالج لها موضوعاً يتزل من نفسها في المكان الاول ، وعبر لها عما تشعر به الام نحو طفلها تعبيراً فنياً جيلا ، فيه النغمة الموسيقية التي هي اقرب الى هدهدة الطفل في مهده الحبيب ، ومن ثم استجابت الام لهذا اللون من الشعر ، لا بما تفهمه وتعلقه في هذا الفن من الادب ، ولكن بما استشعرته لذلك الموضوع الذي عالجه الشاعر الفنان . وكان حسبها في هذه الاستجابة جملة الفاظ فهمتها من ابياته ، فكانت هذه الالفاظ جسراً يصل بين شعورها وشعوره .

واذكر اني كنت في عهد الصبا احرص على شهود المحافل التي يلقى فيها شاعر النيل « حافظ ابراهيم » قصائده الشعبية في الشئون الاجتماعية والسياسية العامة ، وكان الشاعر كعهده يؤثر اناقة اللفظ وجزالة العبارة حتى ليفتقر النشء المتأدب في فهم كلماته الى معجم ، وانا يومئذ قليل الزاد من الفصحى ، ولكنني على الرغم من ذلك ما اكاد استمع الى « حافظ » ينشد حتى احس معانيه تنساب الى نفسي انسياباً ، واذا انا اداجه واسايره بعاطفتي وشعوري، ذلك لأن الموضوعات التي يعالجها الشاعر كانت ملء اسماعنا ، والاحداث التي يستوحيها كانت تشغل بالنا ، ولم يكن جمهور « حافظ » من المثقفين خاصة ، وانما كان خليطاً من طبقات الشعب، يفهمون عنه ، ويتأثرون به ، ويصفقون له في صدق وايمان ، ولست انسى حفلا شعبياً شهدته في « حديقة الازبكية » لذلك العهد، فأنشد فيه « حافظ » إحدى روائعه ، وكان بين جمهور السامعين كثير من ذوي الجلابيب،وهم يطربون للشعر ويهتاجون بالانشاد، ويتصايحون في تهلل واعجاب .

واليك ما عرفت من شأن « طاغور » وجمهوره ، فقد كانت حلقته التي ينشد فيها اشعاره تحفل بالحشد الوافر من جمهور الشعب غير المثقف وبينهم الحفاة العراة المهازيل ، وكان اولئك يصغون الى « طاغور » مرتلا شعره، وكأنهم في معبد يشتركون في صلاة، واعينهم تفيض من الدمع تأثراً واستجابة، وكذلك استطاع هذا الجمهور الساذج ان يستشعر الجمال والروعة في قصائد بالغة من السمو الفني والفلسفي ارفع الدرجات، وانما تسنى للجمهور ان يساير ادب « طاغور » بثلاث : الاولى ان الشاعر يتناول من الموضوعات ما يشغل بال الناس ، وما يحسونه في صميم قلوبهم اوفر احساس . فهم حين يصغون الى الشاعر فانما يصغون الى زفرات نفوسهم واصداء عواطفهم صادقة الوحي والالهام . والثانية ان قصائد « طاغور » اقرب في اسلوبها وجرسها الى النغمة الموسيقية منها الى الفاظ تتألف من حروف . والثالثة ان « طاغور » كان يلقي شعره فيحسبه السامع مغنياً يترنم . وثمة ناحية رابعة ليس من الخير اغفالها . تلك هي ان فلسفة « طاغور » التي ينطوي عليها شعره ادنى الى التصوف والتعبد منها الى فلسفة المذاهب والآراء. والانسان صوفي بالفطرة. متعبد بالطبع . ولم تكن هذه المعاني التي يجلوها «طاغور» في فلسفته الصوفية الا معاني انسانية كامنة في النفس البشرية ، فلا هي بجديدة على الانسان ، ولا هي بمستغلقة عليه. بل هي في سريرته مستخفية تلتمس من يثيرها من الاعماق.

لسائل ان يقول : أفي المستطاع ان يتذوق جمهورنا العربي من فن « طاغور » ما تذوقه جمهوره ؟ .

لا سداد في الاجابة عن هذا السؤال بنفي او ايجاب . فان كثيراً من الالوان الادبية وبخاصة الشعر لا يكاد مذاقه يسوغ اذا نقل الى لغة غير لغته . لأنه يفقد بالترجمة خصائص وقمه الموسيقي وكيانه الفني ولا تبقى منه إلا ظلال واشباح . او هياكل معروقة من عظام . ولو كان في المقدور ان يترجم ادب « طاغور » رناناً بموسيقيته الفنية ، رفافاً بصوفيته الانسانية ،

لكان حرياً ان يتأثر به الجمهور الكبير حيث يكون .

وهذا «شكسبير» الشاعر العبقري الذي نقرأ له اليوم في امعان وروية، محاولين استشفاف الغامض من معانيه، والدقيق من تأملاته الفكرية وتحليلاته النفسية . لقد كانت مسرحياته تمثل على اعين النظارة من عامة الشعب . وكانوا امشاجاً من الناس يتباينون في مراتب الثقافة والذوق . ولكنهم استساغوا من فن « شكسبير » ما يساير عواطفهم ، وما يلائم مزاجهم . واستمرأوا ما كان يمازجهم به من مفارقات الحياة واضاحيك في المجتمع وسخرية لاذعة، ونقد طريف، وما كان يهزهم به من صور المآسي والفواجع في لوعة مريرة وتحسر أليم. فالشعب في ذلك كله مستجيب له اعمق استجابة . فتارة هو واجد حزين وطوراً هو مستمتع طروب .

٧

على الأديب الفنان الذي يرى أدبه محجوباً عن الجمهور ، فيسيء الظن بهم ويسرع الى وهمه أن الناس لا يستطيعون التلقي عنه ، عليه ان يسأل نفسه : أموصول هو حقاً بالشعب يعبر عن خوالجه ويصور منازعه ، وإن كان كذلك حقاً فليسأل نفسه ثانية : هل ابتغى الوسيلة التي يتسنى بها للجمهور الاقبال على ادبه ؟ وان في الجواب عن هذا السؤال جانباً خطيراً من سر العلاقة بين الفنان الكاتب والجمهور القارىء .

ليس بعازب عنا عقم الوسائل التي تتأدى بها الكتب الادبية الى ايدي الشعب . فان هذه الكتب لا تكاد تصل الى الناس إلا بجهد . فالكاتب والقارىء كلاهما يلقي من ذلك اعناتاً ورهقا . وفي مقدورك ان تعزو العزلة التي يعانيها الادب الفني الى ان الجمهور يجهل وجوده ، وانه لا يجد تنبيهاً اليه . وربما وجد سبيله غير ميسور . فللجمهور عذر مبسوط فيما نلاحظ من ضعف اقباله على الاعمال الفنية التي ينهض بها الادباء .

وفي هذا المقام يطيب لي ان اشير الى ان إحدى الفرق التمثيلية ضاقت بما تجد من تراخي الجمهور عما تقدمه من مسرحيات فنية اصيلة . وكانت تعلل ذلك بادئاً بان الجمهور لا يسمو الى هذا المستوى الرفيع . واخيراً خطر للقائمين على تلك الفرقة ان يلتمسوا بعض السبل الى اجتذاب الناس . فخفضوا اسعار الدخول حتى قاربوا بها أسعار الدخول في الدور السينمائية .

وبسطوا لطلاب المعاهد وأساتذتها شيئاً من الأمتياز في الخفض، فازدحم المسرح برواده ، واحتفظت الفرقة بمستواها ولقيت من الاقبال والاستحسان ما لم يكن يدور في الحسبان .

ومما لاحظناه منذ عهد قريب ان بعض دور النشر اخذت تقدم طبعات جديدة من المؤلفات الادبية الرفيعة ميسورة الاثمان تعرض مع باعة الصحف على انظار الناس ، فراجت هذه الكتب وبيع منها الالوف . والجمهور هو الجمهور ، لم يزدد علماً ولا ثقافة بين عشية وضحوة ، وإنما الفضل كل الفضل لهذه الوسيلة الجديدة في نشر الكتب وعرضها على جمهرة القارئين . وليس أدل على نصوع هذه الحقيقة من ان بعض تلك الكتب كان مطبوعا على الطريقة القديمة من قبل . ولم يكن المطبوع منه يزيد على ألفين او ثلاثة . وما تزال منه بقية في المكتبات لم تُبع بعد . فأما هو في طبعته المحدثة بهذه الطريقة الميسورة فأن المطبوع منه يربي على عشرين الفا ، ولا يكاد يظهر حتى تنفد نسخه في ايام معدودات .

ومن طريف ما حدثني به استاذ فرنسي صديق ، انه يسكن شقة في مبنى كبير في باريس ، وعلى باب المبنى يقوم بواب مشغوف بالقراءة ، فبين يديه دائما كتاب يطالع فيه . وقد عنى الصديق بأن يتعرف ما يقرأه ذلك البواب المتأدب ، فأذا هو من الادب المسف الرخيص، فخطر له ان يزاول معه تجربة لا يدري أتحقق ام تفلح ، فدفع اليه كتابا من الكتب ، وترك له ان يقرأه اذا راقه ان يفعل ، فأخبره البواب بانه قرأه في ليلة واحدة، وانه اعجب به ولم يكن الكتاب مغامرة من مغامرات « ارسين لوبين » وإنما كان كتاب « أنا كارنين » لتولستوي . ومنذ ذلك اليوم اخذت المكتبة القصصية الرفيعة التي يقتنيها الاستاذ الفرنسي تُستعار كتابا كتابا لهذا البواب ، فيعب ما شاء ان يعب، وكذلك اثمرت التجربة، واصبح البواب القارىء من عشاق الادب الرفيع .

هذه خواطر في معنى الأدب الشعبي أردت بها توجيه الانظار الى تصحيح مدلوله، والكشف عن حقيقته . فلقد طالما أسيء فهمه ، وشد ما عدل به عن وجهه . ولقد آن لنا ان نرد اليه اعتباره ونوفيه حقه. فاننا نظلم الأدب اذا باعدنا بين الأدب وبينه . كما نظلم الشعب اذا نقصنا من متعة الأدب حظه. وهل للأدب موضوع الا الشعب ؟ وهل للشعب مرآة الا الأدب ؟

القاهرة **محمود تيمور**

صدر حديثاً

حكايات من الرحلات

بقلم الدكتور عبد السلام العجيلي

دار المعارف بمصر